

## البيان فى التفسير العلمى للقرآن

صديق أحمد مالك

### المقدمة :

لم يترك الأوائل للأواخر كبير جهد فى تفسير القرآن الكريم وإظهار مراميه إذ أنهم نظروا إلى القرآن باعتباره دستورهم الذى جمع بين سعادة الدنيا والآخرة فتناولوه من أول نزوله بدراساتهم التفسيرية التحليلية دراسة سارت مع الزمن على تدرج ملحوظ وتلون بألوان مختلفة .

والذى يقرأ كتب التفسير على اختلاف ألوانها لا يساوره شك فى أن كل ما يتعلق بالتفسير من الدراسات المختلفة قد وفاه هؤلاء المفسرون الاقدمون حقه من البحث والتحقيق وتناولوها بتوسع ظاهر وملموس ولم يتركوا لمن جاء بعدهم من عمل جديد أو اثر مبتكر يقومون به فى تفاسيرهم التى ألفوها ، اللهم إلا عملاً قليلاً لا يعدوا إن يكون جمعاً لأقوال المتقدمين أو شرحاً لغامضها أو نقداً و تفنيداً لما يعتريه الضعف منها أو ترجيح رأى على الآخر مما جعل التفسير يقف وقفة طويلة مليئة بالركود خالية من التجديد والابتكار .

ولقد ظل الأمر على هذا وبقي التفسير فى مرحلة الركود والجمود لا يتعدها حتى جاء عصر النهضة العلمية الحديثة فاتجهت أنظار العلماء الذين لهم عناية بدراسة التفسير إلى

أن يتحرروا من قيود هذا الركود ويتخلصوا من نطاق الجمود فعملوا على الباس التفسير ثوباً أدبياً اجتماعياً يظهر روعة القرآن ويكشف عن مراميه الدقيقة وأهدافه السامية والتوفيق بجد بالغ وجهد ظاهر بين القرآن وما جد من نظريات علمية حديثة .

### المبحث الأول

التفسير العلمى والإعجاز العلمى والعلاقة

بينهما

أولاً :

الفرق بين التفسير العلمى والإعجاز العلمى

حين أرسل الله هؤلاء الرسل أيدهم بالدلائل التى تدل على صدقهم فيما يبلغون عن الله تعالى وهى تخالف ما افقه الناس من السنن الكونية والنواميس الطبيعية وهى المعجزة التى تدل على صدق من ظهرت على يده ليزعن الجاحد ويزداد المؤمن ايماناً والمعجزة التى يقدمها الرسول لتكون دليل صدقة وعنوان رسالته رحمة الهية بالناس لأنها دليل الأيمان الذى يهتدون إليه وهى أمر خارق للعادة مقرون بالتحدى سالم عن المعارضة يظهره الله تعالى على يد النبي المرسل عند دعواه اياها شاهداً على صدقه .

وكانت معجزات الأنبياء السابقين معجزات مادية تعتمد فى إدراكها على الحس ويكون من بعده التأمل وكانت حوادث تقع وتنتهى ولا يبقى منها إلا الأخبار بها فلا يعرفها على اليقين إلا من شاهدها ولو لا أن القرآن سجلها ما علمنا بها .

أما معجزة محمد صلى الله عليه وسلم فكانت من نوع آخر وهى مناسبة لرسالته صلى الله عليه وسلم لعمومها فى الأجيال فكانت معجزته مناسبة لهذه الرسالة الخالدة الباقية التى لا يحدها زمان بل تبقى إلى يوم القيامة (١) وللمعجزة صفات جوهرية تتلخص فى التحدي وملاءمتها لطبيعة المخاطبين بها وغايتها التى تحدد مداها الزماني والمكاني وهذه الأمور الثلاثة محققة فى القرآن الكريم تمام التحقق .

أما التفسير العلمى للقرآن الكريم فهو تفسير الظواهر العلمية وفقاً للمعنى القرآنى الذى يدل على هذه الظاهرة العلمية أو هو التفسير الذى يحاول فيه المفسر تطبيق ما قال به العلم على ما جاء فى القرآن الكريم بهدف إثبات وجه من وجوه الإعجاز للقرآن الكريم .

فالتفسير العلمى ما هو الأفهم للآية أو الآيات القرآنية بوجه من وجوه الدلالات المختلفة فى ضوء ما أثبتته العلم من حقائق ثابتة وليس معنى هذا النص القرآنى لا يفهم الا على هذا الوجه من الوجوه . أما الإعجاز العلمى للقرآن الكريم فهو أمر مقرون بالتحدي يظهره القرآن ويوضحه قبل أن يثبت البشر مع ما وصلوا إليه من علم وتقدم .

والذى أود أن أنبه عليه أن كلا من التفسير العلمى والإعجاز العلمى قد رضعنا من ثدي واحد ولهما هدف مشترك وهو الكشف عن خلود القرآن وعظمته وخلود مبادئه وشمولها للعمل بأحكامه والاهتداء بهديه وذلك لاستخلاص الجديد من الفوائد والطريف من العبر حتى يكون القرآن الكريم هو الدستور الدائم والمنبع الصافى الذى لا ينضب معينه والملاذ الأمن الذى يلجأ إليه المسلم فى كل زمان ومكان .

## ثانياً :

### ١٠ المعجزة العلمية تناسب الرسائل السماوية والمستويات البشرية :

لما ختم الله النبوة بمحمد صلى الله عليه وسلم وضمن له حفظ دينه وأيده ببينة كبرى تبقى بين أيدي الناس إلى قيام الساعة قال تعالى فى محكم تنزيله : ( قل أى شئ أكبر شهادة قل الله شهيد بيني وبينكم وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ ) (٢) وقد أشارت هذه الآية إلى ما يتصل بالمعجزة العلمية. وفى آية أخرى يقول تعالى : ( لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه ) (٣)

وفى هذه الآية الكريمة التى نزلت رداً على تكذيب الكافرين بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم بيان لطبيعة المعجزة العلمية التى تبقى بين أيدي الناس وتتجدد مع كل فتح بشرى فى آفاق العلوم والمعارف ذات الصلة بمعانى الوحي الإلهى يقول ابن كثير فى تفسيره لهذه الآية ( والله يشهد لك بأنك رسوله الذى أنزل

## المبحث الثاني

### نشأة التفسير العلمي وحكمه

#### أولاً : نشأة التفسير العلمي :

أخذ التفسير في العصر الحديث اتجاهات متعددة بعضها يساير ما كان عند القدامى ويعتبر امتداداً له وبعضها لم يكن له عند القدامى ذكر واضح وإنما هو لون تعترية جدة في إطاره وبعض مضامينه وهو لا يخلو من اثر ينسب إلى جهود القدماء .

والواقع أن الحياة اليومية في عصرنا الحاضر قد تغيرت معالمها ومعارفها مما أدى إلى حضارة مادية تغلب عليها النظرة العلمية وتوجه الكثير من القضايا التي عرض لها قدامى المفسرين ولم تعد تساير العصر لأنها ليست من معطياته الفكرية في شيء وإن كنا نثبت لهم القدح المعلى في خدمة كتاب الله تعالى وجهودهم العظيمة في بيان ألفاظ القرآن ومعانيه ، ومن هنا اتجه كثير من المحدثين إلى التفسير بإضافة أبعاد جديدة فيه وهم يحاولون الربط بين ما جد في حياتهم من قضايا وبين دستورهم ومنهج حياتهم القرآن الكريم ولما كانت خطوات العلم في هذا العصر هي أوسع الخطى ولما كان القرآن العظيم قد أشار لبعض الحقائق العلمية عن بعض الظواهر الكونية والخلقية التي تطرق إليها العلم الحديث كانت محاولات بعض المفسرين الربط بين هذه التفسيرات القرآنية وبين تفسيرات علماء الهيئة بما يؤكد سبق القرآن الكريم في هذا المجال الحيوي ويكشف عن وجه من وجوه إعجازه العلمي

عليه الكتاب وهو القرآن العظيم ولهذا قال انزله بعلمه أى فيه علمه الذي أراد أن يطلع العباد عليه من البينات والهدى والفرقان وما يحبه الله ويرضاه وما يكرهه ويأباه وما فيه من العلم بالغيوب من الماضي والمستقبل (٣)

وهكذا تسطع بينة الوحي المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم بما نزل فيه من علم الهى يدركه الناس فى كل زمان ومكان ويتجدد على مر العصور ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : ( ما من نبي من الأنبياء إلا وأعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله الى فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة ) قال ابن حجر فى شرحه لهذا الحديث (ومعجزة القرآن مستمرة إلى يوم القيامة وخرقه للعادة فى أسلوبه وفى بلاغته وأخباره بالمقبيات فلا يمر عصر من العصور إلا ويظهر فيه شيء مما أخبر به أنه سيكون مما يدل على صحة دعواه فعم نفعه من حضر ومن غاب ومن وجد ومن سيوجد) (٣) وبينه القرآن العلمية يدركها العربي والأعجمي وتبقى ظاهره متجددة إلى قيام الساعة .

وشاء الله أن يجعل لكل نبأ زمناً خاصاً يتحقق فيه فإذا تجلى الحدث ماثلاً للبيان أشرقت المعاني التي كانت تدل عليها الحروف والألفاظ فى القرآن وتتجدد المعجزة العلمية عبر الزمان وإلى هذا أشار القرآن فى قوله تعالى : ( لكل نبأ مستقر وسوف تعلمون ) (٢)

وحقيقة أن الحقائق العلمية غير ثابتة كما أنها قابلة للنقض والنقد فكثير من النظريات العلمية التى كانت إلى عهد قريب من المقررات الثابتة فى مجالها ويبنى على أساسها الكثير من الحقائق العلمية قد طرأت عليها نظريات أخرى أثبتت بطلانها (٤).

والنظرة التى وجهت بعض المحدثين نحو هذا الاتجاه كانت تستند إلى أن تفسير القرآن الكريم بما تضمنه فى الجوانب اللغوية والفقهية قد درس دراسات كثيرة وأن الجانب العلمى هو الذى يحتاج إلى المزيد من الدراسات والأبحاث العلمية القيمة (٢).

إن موضوع التفسير العلمى للقرآن من الموضوعات الحيوية المتجددة لتعلقه بصحة الرسالة وصدق الرسول صلى الله عليه وسلم الذى جاء بهاء وإقامة الحجة والبرهان فى كل عصر وعلى كل الناس وفى كل مكان وزمان بما يتناسب مع مدارك الناس العلمية ومعطيات الحضارة والتقدم العلمى .

ومجمل القول عن نشأة التفسير العلمى للقرآن أنه لم يكن له أثر كبير عند المفسرين القدامى وإن وجدنا فى تفسير القرآن العظيم إشارات لهذا التفسير وقد أشار لها من طرف خفى فى تفسيره للآيات التى توضح أطوار خلق الإنسان فى بطن أمه (٣).

### ثانياً حكم التفسير العلمى :

أيد كثير من أهل العلم التفسير العلمى للقرآن وعلى رأسهم الإمام السيوطى وعارضه كذلك بعض أهل العلم كما تحفظ آخرون ولكل منهم حججه وبراهينه (١).

أ: المؤيدون للتفسير العلمى وأبنتهم :

من أشهر المؤيدين للتفسير العلمى الإمام السيوطى ويقرر التفسير العلمى بوضوح وتوسع فى كتابه الإتقان فى علوم القرآن وكذلك فى مؤلفه الإكليل فى استنباط التنزيل ونجده يسوق من الآيات والأحاديث والآثار، ما يستدل به على أن القرآن مشتمل على كل العلوم .

ومن المؤيدين كذلك الفخر الرازى الذى سخر كتابه التفسير الكبير لهذا اللون من التفسير حيث أستطرد فى التفسير بالحديث عن علوم الكون والطب والهندسة وغيرها مما جعل من تفسيره موسوعة علمية فى هذه العلوم حتى حتى وصفه ابن عطية بقوله : وجدت فيه كل شئ إلا التفسير .

واستدل هذا الفريق بأبلة منها .

١- أن الله تعالى ملأ كتابه من الاستدلال على العلم والقدرة والحكمة بأحوال السموات والأرض وتعاقب الليل والنهار وكيفية أحوال الضياء والظلام وأحوال الشمس والقمر والنجوم وذكر هذه الأمور فى أكثر السور وكررها وأعادها مرة بعد مره فلو لم يكنه البحث عنها والتأمل فى أحوالها جائزاً لما ملأ الله كتابه منها

٢- أنه تعالى قال فى محكم تنزيله : ( أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج ) . (١).

ووجه الدلالة من هذه الآية الكريمة فى حثه تعالى على التأمل فى أنه كيف بناها ولا معنى لعلم الهيئة إلا التأمل فى أنه كيف بناها وكيف

٣- ما يكتشف من العلوم إنما هو نظريات ومن ثم هي قابلة دائماً للتغيير والتعديل والنقص والإضافة وهي قابلة كذلك لأن تنقلب رأساً على عقب ومن ثم فلا يصح أن نعلق الحقائق القرآنية على مثل تلك النظريات حتى لا نقف محرجين عند سقوط النظرية.

ج : الرأي الراجح وشروطه :

ينبغي أن يكون الربط ما بين التفسير والحقائق العلمية الثابتة التي لا تقبل الشك عند تناول النص القرآني مع إبراك معنى النص وفهمه الفهم السليم الخالي من الشوائب والمؤثرات الخارجية أو الميل به والانحراف لموافقة تلك الحقيقة العلمية (٦)

والراجع جواز هذا النوع من التفسير العلمي للحاجة والضرورة لكن لا بد من معرفة شروطه وضوابطه حتى لا يقع احد في القول على الله تعالى بغير علم ومجمل هذه الشروط فيما يلي :

اولاً : مراعاة شروط التفسير عموماً .

ثانياً : أن يكون التفسير للآيات مطابقاً لمعنى النظم القرآني .

ثالثاً : الا يخرج حد التفسير إلى عرض النظريات العلمية المتضاربة والمهزوزة

رابعاً : أن يثبت المفسر من النظريات العلمية التي يفسر بها الآيات الكريمة .

خامساً : الا يحمل الآيات القرآنية على النظرية العلمية حملاً فان كانت النظرية مطابقة لمعنى الآية فيها ونعمت والا فلا .

سادساً : أن يجعل مضمون الآيات القرآنية اصلاً للمعنى الذي يدور حوله الايضاح

خلق كل واحد منها .

٣- أن التفسير العلمي من أنجح الأسباب في مجادلة أعداء الإسلام ومن خير الوسائل الدعوية في وقتنا الحاضر حيث أثبتت التجارب ثمرة هذا الأسلوب مما أدى إلى دخول كثير من أعداء الإسلام في الإسلام حيث أعلن البروفسور أليسون بالمر البريطاني إسلامه في مؤتمر الإعجاز العلمي في القاهرة عام ١٤٠٦ هـ وإعلان البروفسور الأمريكي مارشال جوكسون إسلامه في مؤتمر نيويورك عام ١٤٠٩ هـ .

٤- أن التفسير العلمي يملأ يملأ النفس ايماناً بعظمة الخالق وقدرته حينما يقف الإنسان في تفسير كلام الله تعالى على خواص الأشياء ويقائق المخلوقات حسب ما تصورها علوم الكون وحينما يرى الحقائق القرآنية ثابتة وصامدة تنكسر تحت أقدامها النظريات العلمية وتعانقها بسلام الحقائق العلمية (٢) .

٥- في التفسير العلمي كشف وإبراك لوجوه جديدة من وجوه إعجاز القرآن الكريم .

١- سورة ق : ٦

٢- أصول التفسير ومناهجه ، د. فهد الرومي ، ص ٩٧

ب : أدلة المعارضين للتفسير العلمي :

١- إن إعجاز القرآن الكريم ثابت وهو غنى عن أن يسلك في بيانه هذا المسلك المتكلف الذي قد يذهب بأعجاز القرآن بدلاً عن أن يثبته .

٢- أن تناول القرآن بهذا اللون من التفسير يضطر المفسر إلى مجاوزة الحدود التي تحتملها ألفاظ النص القرآني .

والتفسير .

سابعاً : أن يلتزم بالمعاني اللغوية فى اللغة العربية للآيات التى يريد إيضاح إشارتها العلمية .

ثامناً : ألا يخالف مضموناً شرعياً فى تفسيره تاسعاً : أن يكون تفسيره مطابقاً للمفسر من غير نقص لما يحتاج إليه من إيضاح المعنى ولا زيادة لا تليق بالغرض ولا تناسب المقام .

عاشراً : أن يكون مراعيّاً للتأليف بين الآيات وتناسبها وترباطها ومؤاخذاتها فيربط بينها لتكون وحدة موضوعية متكاملة (٧) .

#### المبحث الثالث

أراء بعض أهل العلم فى التفسير العلمى  
أولاً : جلال الدين السيوطى والتفسير العلمى :-

يعد الإمام السيوطى من أشهر المؤيدين للتفسير العلمى للقرآن الكريم وهو أكثر من أستوفى بيان هذا اللون فى تفسير القرآن من خلال مؤلفيه الأول الإتقان فى علوم القرآن والثانى الإكمال فى استنباط التنزيل .

حيث نجده يسوق من الآيات والأحاديث والآثار ما يستدل به على أن القرآن مشتمل على كل العلوم فمن الآيات التى استشهد بها قوله تعالى : ( ما فرطنا فى الكتاب من شئ ) (٨) وقوله تعالى : ( ونزلنا الكتاب تبياناً لكل شئ ) (٢) ومن الأحاديث ما أخرجه الترمذى وغيره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال سمعنا من قبل وما المخرج منها ؟ قال : ( كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم ) (٣) وما أخرجه ابن أبى حاتم عن ابن مسعود

رضي الله عنه قال : أنزل فى القرآن كل علم وبين لنا فيه كل شئ لكن علمنا يقصر عما بين لنا فى القرآن (٤) .

وجاء فى كتاب الإتقان فى علوم القرآن ما يلي : ( وأنا أقول قد اشتمل كتاب الله العزيز على كل شئ ، أما أنواع العلوم فليس منها باب ولا مسألة هي أصلاً إلا وفى القرآن ما يدل عليها وفيه عجائب المخلوقات وملكوت السماوات والأرض وما فى الأفق الأعلى وما تحت الثرى ) (٩) .

ومن هذا يتبين لنا جلياً كيف ظهرت آثار الثقافات العلمية للمسلمين فى تفسير القرآن الكريم وكيف حاول هؤلاء العلماء المتقدمون أن يجعلوا القرآن منبع العلوم كلها ولو أننا تتبعنا سلسلة البحوث التفسيرية للقرآن الكريم لوجدنا أن هذه النزعة تمتد من عصر النهضة العلمية إلى يومنا هذا لوجدنا أنها كانت فى أول الأمر عبارة عن محاولات يقصد منها التوفيق بين القرآن وما جد من العلوم كما تبناها صراحة الإمام السيوطى وغيره من العلماء .

ثانياً : الإمام الشاطبى ومعارضته للتفسير العلمى :

يعد الإمام الشاطبى أبو إسحاق إبراهيم ابن موسى الشاطبى المتوفى سنة ٧٩٠هـ من أشهر المعارضين للتفسير العلمى وتظهر معارضته بوضوح من خلال مؤلفه الموافقات حيث عقد بحثاً خاصاً لمقاصد الشارع وينوع هذه المقاصد إلى أنواع تولى شرحها وبيانها والذي يهمنا هنا هو النوع الثانى منها وهو

تضمنه بجميع العلوم العقلية والعقلية (٢) من خلال ما أوضحنا نظهر لنا وجهة نظر الإمام الشاطبي في معارضته للتفسير العلمي للقرآن .

#### المبحث الرابع

**القضايا التي يدور حولها التفسير العلمي :  
التفسير العلمي يتركز حول القضايا الكونية  
التالية وهي :**

اصل الكون، شكل الأرض كما تحدث عنها القرآن وأثبت العلم الحديث وقضيه السموات السبع والحياة على الكواكب الأخرى وقضية اصل الإنسان كما وضحتها وأشار إليها القرآن وتناولتها البحوث العلمية الجادة

وسوف أتعرض لثلاث قضايا فقط وأوضح كيف ربطها المفسرون بوجه من أوجه الدلالات بما أظهره العلم الحديث ومن هذه القضايا :  
**أولاً: أصل الكون؛**

علماء الهيئة يرون أن أصل الكون نشأ من غاز أو دخان ساخن متخلخل يملأ الفضاء ويحتوى على دقائق المادة ويتحرك باستمرار وقد اعترضه فى قديم الزمن هزات قوية واضطرابات شديدة جزأت هذا الغاز إلى قطع من السحب المتكاثفة وانتشر الباقي منه فى الفضاء وقد تصور المحدثون أصل الكون فى ضوء النظريات العلمية الحديثة فهناك النظرية الخاصة بنشأة الكون عموماً وأيضاً النظرية الخاصة بتكوين المجموعة الشمسية وهى تقرر أن الغيم الكوني حول الشمس بدأ فى التمدد فى الفضاء البارد وأخذت حبيبات الغاز الذي يتألف منه القيام بالتكثف على

بيان قصد الشارع فى وضع الشريعة للإفهام وفى المسألة الثالثة من مسائل هذا النوع نجده يقرر أن هذه الشريعة المباركة أمية لا ن أهلها كذلك فهو أجرى على اعتبار المصالح (٢) .

ثم ذكر من العلوم الصحيحة التي كان للعرب اعتناء بها مثل علم النجوم وما يختص به من الاهتمام فى البر والبحر وذكر علم التاريخ وأخبار الأمم الماضية وعلم الطب وبين انه كان فى العرب منه شئ مبني على تجارب الأميين لا على قواعد الاقدميين ثم بعد هذا البيان الذي أوضح فيه الشاطبي أن الشريعة فى تصحيح ما صححت وإبطال ما أبطلت قد عرضت من ذلك إلى ما تعرفه العرب من العلوم ولم تخرج عما ألفوه نراه يزيد هذا البيان إسهاباً وإيضاحاً ويتوجه باللوم إلى من أضافوا للقرآن كل علوم الأولين والآخرين مفنداً هذا الزعم الذي اعتقد أن قائله قد تجاوزوه به الحدفى دعواهم على القرآن ويحتج الشاطبي بقوله : ( أن الصحابة والتابعين كانوا أعرف بالقرآن وعلومه وما أودع فيه ولم تبلغنا انه تكلم احد منهم فى شئ من هذا سوى ما تقدم ) (١٠) .

وبعد ذلك فند بعض ما استند عليه أرباب التفسير العلمي من الأئمة فقال وربما استدلوا على دعواهم بقوله تعالى : (( ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شئ )) ثم أخذ يرد على هذه الأئمة بقوله : ( أما الآيات المراد بها عند المفسرين ما يتعلق بحال التكليف والتعبد أو المراد بالكتاب فى قوله (( وما فرطنا فيه من شئ )) اللوح المحفوظ ولم يذكرها فيها ما يقتضى

الذرات الغبارية ذات الحركة السريعة ثم تجمدت هذه الذرات بالتصادم والتراكم (١١).

وقد اخذ بعض المفسرين ببعض هذه النظريات فيرون أن مجموع السموات والأرض كان مادة واسعة متصلا بعض أجزائها ببعض على كونه ذرات غازية كال دخان .

لذلك فسر بعض المفسرين قوله تعالى : ( أو لم ير الذين كفروا إن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شئ حي ..... ) (١٢)

فسرها بعض المفسرين وربطها بنظرية السديم وهي التي تقرر أن الكون كله نسيج واحد واللفظ الوحيد الذي يمكن إطلاقه علميا على السديم هو الدخان وهو الذي ورد نكره في القرآن الكريم في قوله تعالى :

( ثم استوى إلى السماء وهي دخان ) (٢)

( ولقد قرر علماء الهيئة إن الأرض والشمس والنجوم إنما كانت سديما انفصل إلى أجزاء وقد سبق القرآن العظيم هذا العلم بعشرات المئات من السنين ) (٣).

قال صاحب الظلال في تفسيره لقوله تعالى : ( أو لم ير الذين كفروا إن السموات والأرض كانتا رتقا ) قال ما يلي في تفسيرها :-

( إن هناك اعتقادا انه قبل خلق النجوم كان هناك ما يسمى بالسديم وهذا السديم غاز أو دخان والسدم من نيرة ومعتمة ليس الذي بها من غاز وغبار إلا ما تبقى من خلق النجوم . أن نظرية الخلق تقول أن المجرة كانت من غاز وغبار ومن هذين تكونت بالتكشف

النجوم وبقيت لها بقية ومن هذه البقية كان السدم ولا يزال من هذه البقية منتشرا في هذه المجرة الواسعة مقدار من غاز وغبار يساوى ما تكونت منه النجوم وهذا الكلام قد يكون صحيحا لأنه أقرب ما يكون إلى مدلول الحقيقة القرآنية ثم استوى إلى السماء وهي دخان . (١٣)

أن الآية الكريمة من عجائب الإعجاز العلمى فى القرآن لأنها سبقت علماء الفلك المحدثين إلى ما قرروه من أن الكون كله قبل أن تتشكل معالمه ومجراته ونجومه كان سديما غير متميز بعضه من بعض ثم أخذ يتميز ويتطور لا يدرون بالضبط كيف ؟ وان نسبوه إلى فعل الجانبية .

وكما تحدث العلماء عن أصل تكون الكون كانت لهم وجهة نظرهم فى نهايته ويمكن أن تكون نظرية التفسخ والتمددي التي أشارت إلى ذلك حيث تحدثت عن التوسع التفسخ والتمددي الذي يحدث فى السموات والأرض فيحدث التصادم مما يؤدي إلى نهاية الكون وفنائه .

لقد حاول بعض المفسرين ربط هذه النظرية ببعض ما أشار إليه القرآن الكريم مثل قوله تعالى [ والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون (٢) ] .

## ثانياً : شكل الأرض :

من القضايا التي يتناولها أصحاب الاتجاه العلمى فى التفسير شكل الأرض من حيث الكروية وعدمها والحركة وعدمها من أجل أن يوفقوا بين ما جاءت به آيات القرآن عندما



وانشد قول زيد بن عمر بن نفيل  
أسلمت وجهي لمن أسلمت  
له الأرض تحمل صخراً ثقالاً  
بحاها فلما استوت شدھا

بايد وأرسي عليها الجبالا (١٥)

ومن الآيات التي تشير إلى كروية الأرض قوله  
تعالى : (يكور الليل على النهار ويكور النهار  
على الليل)(٢). حيث أشارت الآية الكريمة إلى  
كرويتها بكروية جوها الذي يشغله .

والتكوير في اللغة اللف يقال كار العمامة على  
رأسه وكورها لذلك قال علماء السلف رضوان  
الله عليهم في قوله تعالى : (إذا الشمس كورت)  
(٣) . اى لف جرمها وذهب ضوئها (٤)

وليس هناك اى تعارض بين كروية الأرض  
وبين قوله تعالى في سورة الغاشية : ( والى  
الأرض كيف سطحت) لان تسطيط الأرض  
وهى كبيرة فى مساحتها لا ينافى كرويتها  
وإنما يحدث التناقض بين التسطيط والكروية  
إذا كان الجسم صغيرا . وقد أشار إلى ذلك  
الشيخ السعدي فى تفسيره حيث أورد حديثاً  
بديعاً فى تناوله للآية الكريمة حيث قال :

( واعلم أن تسطيطها لا ينافى أنها كرة  
مستديرة قد أحاطت الأفلاك فيها من جميع  
جوانبها كما دل على ذلك النقل والعقل  
والحس والمشاهدة كما هو مذكور معروف  
عند كثير من الناس خصوصاً فى هذه الأزمنة  
التي وقف فيها الناس على أكثر أرجاءها بما  
أعطاهم الله من الأسباب المقربة للبعيد . فان  
التسطيط إنما ينافى كروية الجسم الصغير  
جداً الذي لو سطح لم يبق له استدارة تذكر

تصف الأرض أو تتحدث عنها وبين ما يقوله  
علماء الهيئة ويثبتة العلم الحديث .

وقد جاءت الآيات الكريمة فى القرآن وهى  
تتحدث عن الأرض لتلفت أنظار الناس إليها  
والتأمل فيها لتدلهم على وجود الله تعالى  
ووحدانيته وعظيم قدرته وكامل علمه .

لقد قدر علماء الهيئة أن الأرض كروية الشكل  
وأنها متحركة وليست لها حافة ينتهي إليها من  
يجوب سطحها كما ذهبوا أن لها حركة يومية  
وهى دورانها حول محورها ويترتب عليها  
الليل والنهار وحركة أخرى سنوية حول  
الشمس وتترتب عليها الفصول الأربعة كما  
قالوا أن لها حركة ثالثة مع المجموعة الشمسية  
كلها

لقد ظل المفكرون يعتقدون أن الأرض مبسطة  
وكان من الطبيعي أن يروا ذلك فهذا هو الرأي  
المشاهد المشترك بين الناس وظلوا على هذا  
الاعتقاد حتى تقدم العلم فى العصر الحديث  
بمراصده وآلاته الحديثة فقرر أنها ليس  
كروية تامة التكوير بل هي منبعجة عند خط  
الاستواء ومفلطحة عند القطبين اى أنها  
بيضاوية الشكل وهذا ما أشار إليه المفسرون  
فى تفسيرهم لقوله تعالى ( والأرض بعد ذلك  
بحاها)(١٤) .

وهذه الحقيقة لم يدركها بدقتها إلا العلم  
الحديث بينما أظهرها القرآن الكريم منذ أمد  
بعيد (٢) .

أورد الإمام الشوكاني فى تفسيره للآية ما  
يلي : (بحوت الشئ انحوه : إذا بسطه ويقال  
لعش النعامة أبحى لأنه مبسوط على الأرض

وأما جسم الأرض الذى هو كبير جداً وواسع فيكون كروياً مسطحاً ولا يتنافى الأمران كما يعرف تلك أسباب الخبرة (١٦).  
**ثالثاً : أصل الإنسان :-**

الذى يجب على المسلم أن يعلمه عن الإنسان وواقعه هو الإيمان بأنه من أفضل المخلوقات وأشرفها بدليل قوله تعالى : ( ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير مما خلقنا تفضيلاً ) (٢).

فالإنسان مخلوق من حيث الجنس من عنصر التراب لأن القرآن قرر أن آدم عليه السلام خلق من تراب ومن طين ومن حما مسنون ومن صلصال كالفخار وهى عناصر كلها ترجع إلى جوهر واحد وهو التراب ومنه تفرعت هذه الأحوال قال تعالى : ( إذ قال ربك للملائكة أنى خالق بشراً من طين فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين ) (٣) . وقال تعالى : ( إذ قال ربك للملائكة أنى خالق بشراً من صلصال من حما مسنون ) (٤) .

فهذه الآيات وسواها كثير تشير إلى أن الله تعالى خلق آدم ابتداءً من الطين على هذا الشكل وبهذه الصورة ولم تشر إلى تحول الإنسان من نوع إلى آخر بل العكس أشارت الآيات الكريمت إلى مراحل تطوره على الحالة التى ينتقل فيها طوراً بعد طور كما هو عليه الآن قال الله تعالى : [يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فانا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقه ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر فى الأرحام ما

نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلاً ] (١٧) إن مكانة الإنسان فى القرآن الكريم هي اشرف وأسمى مكانة له بين الكائنات جمعياً فهو الكائن العاقل والمفكر والمدبر والمكلف الذى سخر الله له ما فى السماوات والأرض ومكنه فيهما وأحل له الطيبات ورزقه منها ومن الأدب مع كتاب الله تعالى أن كل علم ما لم يبيئه الله عز وجل إلى علمه وحده اللهم إلا ما كان خاضعاً من تلك لوسائل البحث والتجربة والمشاهدة فقد دعانا القرآن الكريم إلى البحث عن الحقيقة والتنقيب عن اليقين فى ذلك ولئن كانت نتائج العلم الحديث وحقائق الدين تقاربت فى أصل الكون فى رأى بعض الباحثين فاستطاعوا التوفيق بين ما جاء فى كتاب الله عز وجل وبين ما قال به العلم الحديث فأنهم وقفوا حيارى أمام مسألة أصل الإنسان فأن المفسرين والباحثين ما عدا القليل منهم على الرغم من نصرتهم للمطابقة بين العلم والدين وقفوا للهجوم على نظرية دارون فى أصل الإنسان .

لهذا فأن العلماء الذين رحبوا بنظرية السديم من تفسير أصل الكون وقفوا طويلاً فى وجه نظرية التطور يعلنون حربهم عليها ومعارضتهم لها وهذه النظرية ظهرت فى القرن التاسع عشر على يد دارون الأنجليزى ولكن هذه النظرية ليست وليدة العصر الحديث بل هو رأى قديم قال به فلاسفة اليونان ووجد أننا صاغية عند بعض مفكري العرب (٢).

ورغم ما طرأ على هذه النظرية من معارضة جارفة فقد شاعت فى العالم شيوعاً كبيراً

من إدراك علمي لآيات القرآن ليس معناه أن حقائق القرآن قد تغيرت أو تطورت في ذاتها - معاذ الله - وإنما الذي تغير ويتغير وتطور هو عقل الإنسان الذي يتسع إذا استنار وفكره إذا استقام مع كثرة البحث والدرس والتجريب فيبدوا له القرآن على حقيقته الأصلية الخالدة فلا مبدل لكلمات الله تعالى .

إن القرآن الكريم هو كلام الله تعالى وكلامه جاء من العلم الإلهي الذي أحاط بكل شيء علماً ولهذا السبب كانت معاني كلام الله واسعة بدرجة لا يقاس بها كلام البشر الذي يستند إلى علم محدود . ومحكمات القرآن الكريم من عقيدة أو عبادة أو عمل أو أحكام مفهومة تماماً بالتفصيل منذ عهد السلف الصالح وهذه الأساسية للقرآن لا تتغير ولا تتبدل بمرور الزمان ولكن القرآن بون هذه المقاصد الأساسية ويحتوى على معاني ثانوية من المتشابهات الإضافية ومعاني هذه المتشابهات تفهم على وجه الكمال والتفصيل بعد زمن التنزيل وقد يكون فهم السلف الصالح لها فهماً أجمالياً .

إن علوم العصر الحاضر لا تعد شيئاً مذكوراً بالنسبة لما فعله القرآن في النفوس فقد كون أمة عظيمة حملت مشاعل الهداية إلى كل بقعة من بقاع الأرض وأخرج للوجود خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله تعالى .

وواسعاً أدى ببعض المفكرين المسلمين أن يتمسوا لها أدلة من القرآن أو توفيقاً بينها وبين آياته فيأتي كاتب ليقدّم لنا نظرية التطور بصراحة مستشهداً بتأويله لبعض الآيات مثل قوله تعالى : ( وقد خلقناكم أطواراً ) ( ١٨ ) وقوله تعالى ( ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ) ( ٢ ) .

لا شك أن هذه المحاولات لتفسير هذه الآيات الكريمة ومحاولة الربط بينهما وبين هذه النظرية هي ابتعاد واضح عن المقصد القرآني وتقديمه في صورة نظريات علمية مهزوزة لا تتصل بمقصد القرآن من قريب أو بعيد .

#### الخاتمة

بتوفيق من الله تعالى تناول الحديث بعض الاضاعات في التفسير العلمي للقرآن الكريم وبما أن العلم هو المهيم وهو لغة العصر فلا يمنع هذا اللون من التفسير العلمي للقرآن الكريم وفق الشروط المذكورة سابقاً وينبغي التشدد في هذه الشروط حتى لا نجعل من كتاب الله عز وجل مختبراً نقيس عليه كل نظرية علمية فالقرآن في المقام الأول كتاب تشريع وهداية جاء ليخرج الناس من الظلمات إلى النور .

والحقيقة التي أود أن أؤكدّها وقد أكدّها الباحثون والدارسون من قبلي أنه لا تعارض بين القرآن الكريم والعلم الحديث وما يبدوا كذلك في ظاهره أما بسبب خطأ في فهم الآية وأما بسبب خطأ في النظرية العلمية التي لا تمت بصلة للحقيقة العلمية .

كما يجب التصديق بأن ماجد في هذا العصر

## المراجع

- ٢- المرجع السابق ص ٢٠٤
- ٣- انظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ج ٣، ص ٢٢٧-٢٢٧
- ١- التفسير والمفسرون، د. الزهبي ج ٢، ص ١٥٥
- ١- أصول التفسير، ص ٩٩
- ١- أصول التفسير وقواعده، خالد العك، ج ٢٢٤.
- ١١- الأنعام: ٣٨
- ٢- النحل: ٨٩
- ٣- الترمذي، ج ٥، ص ١٧٣
- ٤- الإكليل، السيوطي، ص ٢
- ١- الإنشقاق، السيوطي، ج ٢، ص ١٣٢
- ٢- الموافقات، الشاطبي، ج ٢، ص ٦٩
- ١- الموافقات، الشاطبي، ج ٢، ص ٧٩.
- ٢- المرجع السابق، ج ٢، ص ٨٢.
- ١- الله والعلم الحديث، عبد الرازق نوفل، ص ١٤٠
- ١- الأنبياء: ٣٠
- ٢- فصلت: ١١
- ٣- الله والعلم الحديث، عبد الرازق نوفل، ص ١٤٠.
- ١- في ظلال القرآن، سيد قطب، ج ٥، ص ٣١١٤
- ٢- الذاريات: ٤٧
- ١- النازعات: ٣٠
- ٢- القرآن والعلم، ص ٢٧
- ١- فتح القدير الشوكاني، ج ٥، ص ٤٧٤
- ٢- الزمر: ٥
- ٣- التكوين: ١
- ٤- فتح القدير، ج ٥، ص ٤٨٦
- ١- تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ج ٥، ص ٣٩٧
- ٢- الإسراء: ٧٠
- ٣- ص ٧١-٧٢
- ٤- الحجر: ٢٨
- ١- الحج: ٥
- ٢- الإنسان في القرآن، العقاد، ص ٧١
- ١- نوح: ١٤
- ٢- الأعراف: ١٠
- ١- القرآن الكريم .
- ١- أصول التفسير ومناهجه . أ. د. فهد الرومي ، مكتبة الرشد ط ٦
- ت ١٤٢٢هـ .
- ١- أصول التفسير وقواعده خالد العك ، دار النفائس ، ت ١٤٠٦هـ .
- ١- الإسلام في عصر العلم محمد فريد وجدي ، ط ٣، ت ١٩٦٧هـ .
- ١- التفسير والمفسرون د.الزهبي مكتبة وهبة ، ط ٦ ت ١٤١٦هـ .
- ١- التفسير الكبير الفخر الرازي ، دار الفكر ١٤١٥هـ .
- ١- القرآن والعلم الحديث عبد الرازق نوف ، ط ٢ ، ١٩٧٤م .
- ١- في ظلال القرآن سيد قطب ، دار الشروق ، ت ١٤٠٦هـ .
- ١- دراسات في التفسير وأصوله د. محي الدين بلتاجي ، دار الثقافة ، ط ١٩٨٧م .
- ١- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ، الشيخ السعدي ، عالم الكتب ، ط ٢ ، ١٤١٤هـ .
- ١- المعجزة الكبرى محمد أبو زهرة ط، دار الفكر العربي .
- ١- الإنسان في القرآن ، العقاد ، ط ، دار الهلال .
- ١- الله والعلم الحديث ، عبد الرازق نوفل ، ط دار الفكر العربي .
- ١- القرآن العلم ، احمد محمود سليمان .
- ١- الإنشقاق في علوم القرآن جلال الدين السيوطي ، المكتبة العصرية .
- (هوامش)
- ١- المعجزة الكبرى ، محمد أبو زهرة ص ١٣
- ١- الأنعام: ١٩
- ٢- النساء: ١٦
- ٣- ابن كثير ج ١ ص ٥٦٠
- ١- فتح البارئ لحجر بن حجر ج ٩ ص ٨
- ٢- الأنعام: ٦٧
- ١- دراسات في التفسير واصوله ، محي الدين بلتاجي، ص ٢٠٤.